

قصيدة النثر النسوية وتصوراتها للحياة والفن.

د. بودة بلقاسم

جامعة زيان عاشور - الجلفة

احتفى الشعر العربي المعاصر بأسماء لامعة لشاعرات صنعن زمانهن الشعري ونجحن في التعبير عن مواقفهن من الحياة والفن، وآمنوا بأن الشعر رسالة التعبير والتغيير، فبدأ الصوت الشعري العربي النسوي يعلو ويرتفع في فضاء الإبداع الأدبي، وقد ارتبط هذا الصوت في الوطن العربي المعاصر بالثورة العصرية في كافة المجالات، فقد عبرت الشاعرات بفطرتهن عن الفن والحياة بمختلف تفريعاتها، وأسسن إبداعا غنيا ومشاركيا بفاعلية في الارتقاء بالإنسان فكريا من جهة وفي تعميق الرؤى الفنية الأدبية من جهة أخرى.

عُمرت الساحة الأدبية العربية ب ذخيرة غنية من الإبداعات الشعرية التي أنتجتها المرأة العربية، إذ ظلت ترتقي وتسمو في هذا المجال، وأضحّت تظهر جماليات الكتابة النسوية، وتبين دورها في إثراء الثقافة العربية "أول ما يتبادر إلى الذهن الآن أن هذا الجنس المهجن الجديد قد أصبح أكثر الأشكال الفنية تلاؤما واتساقا مع صوت المرأة الحاد الرفيع، الذي أخذ يشق فضاء الثقافتين العربية والعالمية، ويزاحم أصوات الرجال الجشّة وإيقاعاتهم الخشنة المسرفة"¹، فنجحت الكتابة الشعرية النسوية في التأسيس لبني فكرية جديدة ترفع من مستوى الذائقة الاجتماعية بما ينسجم مع القيم الإنسانية العليا، وقد ساهمت في الأعمال الأدبية الكبرى بالتعبير عن الجوهر الإنساني والأخلاقي، وقد أثبتت دورها العظيم في ترسيخ قيم المحبة والانفتاح على الآخر والانتصار على الفكر المتحجر.

إن سبر أغوار النتائج الشعري النسوي في فضاء قصيدة النثر هو دلالة قوية على حضور المرأة الشاعر في التعبير عن تجاربها وطاقتها، ومؤشر بوعيها في الضرورة الملحة التي دفعت بها إلى التمرد والثورة، وإن كانت تتموضع في إطار محاكاة النماذج الإبداعية المكرسة للرجل الشاعر، فمهمة الشاعرة تمتد "من مجرد نظم الشعر لكي تندرج ضمن مدرسة فنية لها مقوماتها وسماتها الخاصة وذوقها الفني"²، فإن لها خصوصيات الاختلاف قد تكون محايثة للهيمنة الذكورية، فهي في "بث شجونها ونفث همومها وتحقيق ذاتها في نوع يثير غيظ المجتمع الذكوري الرشيد، فهي لم تعد مجرد صوت يترنم صادحا بأقوال الرجال، مكررا لنغماتهم، مكرسا لمنظومة قيمهم، وإنما آن لها أن تسترد صوتها المبحوح وكلامها المتكسر ونبرتها الحميمية الصادقة"³ فأفضت إلى خلحلة الخطاب الشعري المهيمن وقد ساهمت في تغييرات جذرية في الأفق المعرفي والأفق الجمالي للشعر العربي.

كان للمرأة العربية المبدعة لها كيان مستقل أعريت خلاله عن وجودها، فهناك نساء شاعرات دخلن سجلّ الأدب العربي المعاصر من بوابة الشعر الحر أو قصيدة النثر، التي فتحت لهن بفضاءاتها التعبيرية المشبعة بمجالات جديدة لدخول مناطق خصبة للإبداع، وروضت ذائقتهن الفنية الشعرية وسهلت لهن استساغة الأنماط التعبيرية الجديدة والحرية في البوح عن أنفسهن وعن طموحاتهن وظلالها. ولهذا سنقف في هذه الدراسة عند فضاءات القصيدة النثرية النسوية وأنساقها المعرفية وتشكلاتها الفنية لدى بعض من الشاعرات اللواتي تركن بصمة قوية في الشعر العربي، وكان لإنتاجهم صوت التمرد والثورة في الحياة وكذا في الفن.

الأنوثة فضاءات شعرية وتصورات للحياة:

تشكل قصيدة النثر العربية النسوية المعاصرة أفكارا تختزل تصورات فلسفية عميقة بوصفها رؤى ايديولوجية متشظية الهوامش متفتحة على تأويلات قائمة على الاختلاف والتنوع، وإذا رمنا بحث تعدد أنماط هذا النتاج، وتحوله فكريا وجمالي وداليا

خلال هذه الفترة وجدنا إن الهوية الأنثوية تتوفر على اختلاقات رؤيوية لا تكاد تحصر، وخاصة أنها وجدت رغبة نسوية في التحقق والاكتمال بعيدا عن التماهي مع الآخر⁴، وهذا يعني رفض إقصاء المتخيل الأنثوي الذي يضع المرأة في اختبار ذواتها، بعيدا عن الهامش أو المنفى الذي اختاره لها الرجل، فقد أوجد تمثيل الخطاب الأنثوي الذي يتحدى مقولات المركز في مختلف أبعاده خطابات شعرية نسوية تسارع إلى فرض تمردها بلغة إبداعية، وأكثر من ذلك بثورة شعرية ناعمة لانتزاع الاعتراف بوجودها والإقرار بحقها في تقرير مصيرها الإنساني والإبداعي. تقول سعاد الصباح:

أيها الاستعماري الكبير...

يا أجمل البرابرة...

وأعدل الطغاة..

أحبك.. وأعرف أنك مغتصب للسلطة

أحبك.. وأعرف لا شرعية لاحتلالك

أحبك.. وأعرف عبثية الصراع معك

ومع هذا..

لا طالب بخلعك عن العرش..⁵

نجحت في نقل ما تعانيه من أزمات أوقعها فيها الرجل، فهو منتهك وغاصب ومستبد وهمجي في بربريته، إلا أنها لم تبخسه حقه فهو الجميل هو العدل هو الحقيقة التي لا مناص للمرأة للاعتراف بمكانته على هرم عرشها. وتقول:

يا سيدي:

إن كنتَ تعتبر الأنوثة وصمةً

فوق الجبين،

فما الذي أبقيتَ للمتحجرين؟

يا أيها الرجل الذي احتكر الذكاء

يا أيها القمر الأناني

الذي اغتصب السيادة في السماء

يا من تعقدك انتصاراتي..⁶

كانت سعاد الصباح مدفوعة للتمرد على سلطة الرجل الذي احتكر الذكاء وكأنه قمر في تفرده، إنه اغتصب السيادة وتملك الريادة، فتعيب عنه النظرة الدونية التي يفبرك بها تصوراتها للمرأة، وبقت تؤسس لانعتاق أنثوي من سلطة ذكورية قوامها التفوق دائما، فهي تنافس الرجل أن يسير في فضاءها اللامحدود اللين الساكن والجديد، وهي في ممانعتها تتموضع وكأنها منتصرة، وهذا مصدر إلهامها، إن سعاد الصباح تتوحد مع ذاتها فهي مفعمة بالغرائب، ولكن هذا التوحد تربطه وشائج بالمكان والزمان فهذا الفضاء تكشف أبعاده من إشراقته وإطلالته في جنسها وقضاياها، وما يتسم به هذا النوع من براءة وصفاء ونقاء فهي تمثل في نفسها مشقة ذاكرة المرأة المحرومة المسيطرة"صرحت سعاد الصباح بصوتها ممزوجا بالرضى تارة وتارة أخرى هادرة بالغضب والرفض والتحدي"⁷، أنها تريد ترميم العطب الذهني الذي حمله الرجل من ترسباته الفطرية المغالية.

إن البحث عن الحرية المطلقة تجاوزت الحدود المصطنعة التي قاست منها المرأة العربية الشاعرة، فحين عبرت عن نفسها وبحثت عن حريتها وكيونيتها في هذا العالم، وقفت في مواجهة الطرف الآخر (الرجل) حاملة بتخطي الصورة الدونية التي تتوهمها من طرفه، فالشاعرة كامرأة " تواجه وتستوحي ذاتها الحاضرة وسلالتها التاريخية فيما هي تعيش داخل واقع مطبوع بالحيف وتقسيم الأدوار تقسيما يفرض عليها أن تكون امرأة بشروط الرجل"⁸، إن خواص التجربة النسوية في قصيدة النثر حقق نوعا من الوعي الذي يسكن هواجسها ويعرب عن مكنوناتها بهذا الشكل الشعري الجديد. تقول فهمية نصرالله:

إن العلاقة بين الرجل والمرأة تظل متوترة دائما في تصور الشاعرات العربيات، لأن الرجل المستبد هو الذي يسعى في نكبة المرأة وفي قهرها الدائم، قهر المرأة إلى درجة العبودية كما تصوره الشاعرة فهمية نصرالله في ديوانها «عاصمة الأرض» في قصيدة بعنوان: «أنا عبدة» هذه العبدة التي تبحث عن حريتها وانعتاقها وخلاصها من الأسر العظيم الذي طوقها به الرجل:

أنا عبدة يا سيدي
وجلدي الأسمر لا يستحق عناية
أخبز لأطعم الجياع، وأبقى جائعة
أملأ الجرار وأسقي العطاش
وأبقى ظامئة
يجلسون في الظل وأنا
عبدة تعيش تحت الشمس
أنا عبدة
وتربطني بالأرض صلة عميقة
أتقبل جراحي بصمت
وأغير مع الفصول
أنا عبدة⁹

تتحلى العلاقة الوجدانية الطافحة بالتشاؤم بين الرجل والمرأة في نص فهمية نصرالله، من إنكار وإهمال وتمييز وانتقاص من الطرف الآخر، فالحلقة الأضيّق أصدق تعبيرا عن روح الجماعة في ممارستها اليومية دون حجب أو تعميم، وكيف استغلها الرجل في فرض سيطرته، فصاغت نصها من خلال نظرتها السلبية الساخرة له، ونلاحظ تهرب الشاعرة من كل الأوضاع القهرية، ومع ذلك كله لا تتخلى المرأة الشاعرة عن خصوصياتها، فهي لها أمورها ولها أحلامها، وتأتي القصيدة لتحتضن هذه العوالم البسيطة، فإن قيمة الحب التي تبحث عنها المرأة في نصوصها الشعرية تعلق على تطرف الرجل وتعتته وتسلطه.

ظلت هذه القضايا تتكرر في الشعر العربي النسوي، تبين نماذج لمعاناة المرأة، والتي تعيد صياغة القضايا المسكوت عنها في الهامش النسوي العربي شعريا، فقد اشتركن في تصوير إثبات الذات ومحاولات الخلاص من تبعية الرجل، والخروج من دائرة العتمة المحكمة الإغلاق بالتقاليد والعادات، فأصبحت فيه المرأة العربية المبدعة أكثر تفتحا وإشراقا وتعبيرا عن همومها الحقيقية بشكل غير مسبوق في الشعرية العربية، وأصبحت كتاباتها الشعرية طريقاً إلى المعرفة والسلام والإيمان والحب، وبالبحث عن تمثيلها وتبنيها لقضاياها نجدها تتبنى ذلك العمق في الطرح كقضية أساسية تناضل بها من أجل التحرر محليا أولا ثم توفقها إلى رسم معالم

الحقيقة الإنسانية الهادفة الداخلية، ومنه إلى مواجهة القضايا الراهنة التي تحف محيطها العام الحضاري سياسيا وثقافيا واجتماعيا، وفي إعادة التشكيل للعناصر والتفاصيل التي تأمن بها، وهذا هو جوهر الشعر وجدواه في عالمها الخاص.

الجماليات الفنية في قصيدة النثر النسوية:

إن الشاعرة العربية ظلت تبني صوتاً أنثوياً يجسد خطاباً حضارياً، يخدم الحياة في كافة مناحيها، مثلما يخدم عناصر التحول في البناء الفني الشعري "يبدو أنّ لسان المرأة أو لغتها المرحلة اليوم كنسقٍ من العلامات إلى سياق الكتابة الشعرية، هي مهمّة الشاعرة لإعادة المرأة إلى الكتابة، حضوراً بها إلى قلب الحياة"¹⁰، وتنامت الأصوات النسوية بشكل مطرد منذ منتصف القرن العشرين، حتى أصبحن يشكلن ظاهرة إبداعية في فضاء الشعرية العربية، وبالقراءة النصية المكثفة لتجارب هؤلاء الشاعرات، يمكن لها أن تضيء عناصر التحول في أداء الكتابة النثر - شعرية في القصيدة النسوية.

تعتبر قصيدة النثر حدثاً عظيماً غيرت مجرى الشعر، مثل تدشيننا لظاهرة شعرية وحدث ثقافي جديدين خلخل بديهيّات الشعر وعدل عن مسارها، وكانت الانطلاقة نسوية مع نازك الملائكة، إذ كان لها قصب السبق في تحديث القصيدة العربية وتحريكها مما زانَ عليها من سلطة النموذج الشعري القديم، فنازك الملائكة "المرأة الأنثى التي حطّمت أهم رموز الفحولة وأبرز علامات الذكورة، وهو عمود الشعر"¹¹، فقد تبنت رؤية حدثية تعكس واقعا جديداً بالوقوف على عتبات الحداثة بمعناها الثوري المتمرد، وفرض تكوين مشهد شعري جديد بانطلاقات فنية مناسبة للحضارة والحداثة.

الحب والجمال والحرية والانسانية والوطن والدين والهوية أغانيم كللت بها قصيدة النثر النسوية في عناصر تشكل إطارها الدلالي العام، وكان لها ثراء على مستوى التشكيل الجمالي الفني، ومن الواضح أن المرأة الشاعرة ظلت تمتاح من الحياة مضامينها الدلالية، وميلها إلى التحديد وإظهار البراعة الفنية حسبما تقتضيه الأسس البلاغة العربية والبراعة اللغوية والعروضية. تقول سعاد صباح:

يا سيدي:

إن كنتَ تعتبرُ الأنوثةَ وصمةً

فوقَ الجبينِ،

فما الذي أبقىكَ للمتجهرين؟

يا أيها الرجلُ الذي احتكرَ الذكاءَ

يا أيها القمُرُ الأنانيُّ

الذي اغتصبَ السيادةَ في السماءِ

يا مَنْ تعقدُكَ انتصاراتي...

وتكرهُ أن ترى حولي

ألوفَ المعجبينِ..

يا مَنْ تخافُ تفوقي..

وتألقي...

وتخافُ عطرُ الياسمينُ

هل ممكنٌ..

أن يكره الإنسانُ عطرَ الياسمين؟¹²

تتميز القصيدة بحس تهييجي صارخ احتزل الشاعرة عند حدود عتبات الرجل، أما في الشكل فإننا حين نعين القصيدة من منظور جمالي فإنها لا تخلو من الفن الأدبي والبلاغي واللغة المجازية والبنية العميقة وحتى الإيقاع الموسيقي، ونلاحظ التوازنات المتكررة في بناء العبارة، وحسن التقسيم البلاغي الذي يثري بدوره موسيقى القصيدة، وشمل الأسلوب الذي اتسم بالتجديد ميلاً نحو الوضوح والتيسير مع فصاحة اللفظ ورقته؛ إضافة إلى رشاقة العبارة وجودتها.

إن التركيز على أبرز الملامح والخواص الفنية والجمالية في قصيدة النثر النسوية عبر قراءة أصواتها وشرائعها الحدائية واستقراءها يمكننا استنباط أنماط من الكتابة الشعرية النثرية النسوية، فقد جاء فضاءها مفتوحاً لاختيار الموضوعات الحضارية، امتزاج الذاتي بالواقعي، وترسب المعاني الوجدانية المختلفة المواجهس، اعتماد البنية القصيرة لإنتاج النصوص الشعرية، إطلاق فضاء الاختيار النصي من بنية النظام اللغوي في مستوياته الصوتية ومعانيه المعجمية وقوته الدلالية، تكوين آليات مشهدية متحررة، تكثيف المعنى وتجريد الصورة

مثلاً لاحظنا تحقق البنية السردية في قصيدة النثر النسوية وتمدها في شكلها الحكائي وفق خط أفقي، وقد تراكمت العلامات في قصيدة النثر النسوية بشكل كبير فهي عنصر مهم في إثبات النص دلاليًا، وجعله سلسلة واحدة، وقد كانت متعددة فهي تمنح النص القدرة على الحضور في المضمون كنسق في عين على التأويل والتحليل بما تحمله من دلالات حسية ومعنوية كونها تتقاطع جميعها في تكوين المعنى وإدراكه وفهم مقصدية الشاعرة والتعلق مع دلالاتها.

وقد لاحظنا تكثيفاً بلاغياً عن طريق المجاز والاستعارة والإكثار من محسنات الكلام والبدیع، فينأى المتن الشعري عن التقريرية والسطحية والمباشرة، وتوافر الجرس الموسيقي والصوتي مما يحدث سلاسة وإيقاعاً في القصيدة النثرية. وجود الإيحاء والرمز والغموض مما يساهم في تعميق الأسلوب بالانزياحات، الناتجة من ترسبات إدماج النفس الأنثوي في نسيج اللغة الشعرية، وتنويع بعدها الإيقاعي بخفوتة وتردّداته المهموسة، وتوسيع مداها التصويري عبر إطلاق العنان لخياهرنّ البكر.

الهوامش:

1. صلاح فضل : قراءة الصورة وصور القراءة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1997 ص107.
2. مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، مكتبة غريب، القاهرة، 1991، ص 210
3. صلاح فضل : قراءة الصورة وصور القراءة، 109.
4. ينظر، خالدة سعيد (المرأة، التحرر، الإبداع) إصدار جامعة الأمم المتحدة ، الدار البيضاء، 1991، ص 86.
5. سعاد الصباح، ديوان الورود تعرف الغضب، دار الصباح للطباعة والنشر، الكويت، ط1، ص93.
6. سعاد الصباح، الورود تعرف الغضب، ص 40
7. النسور تيسير رجب، البناء اللغوي والفني في شعر سعاد الصباح، جامعة اليرموك، الأردن، 2001، ص40.
8. محمد برادة" المرأة والإبداع في مواجهة الدونية والسيطرة الذكورية " مجلة العربي . 534 ماي. 2003 ، ص.
9. فهمة نصر الله : عاصمة الأرض دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ، 1978، ص 103.

10. محمد العباس، سادنات القمر: سرّانية النص الشعري الأنثوي، دار نينوى، دمشق، ط2، 2010، ص 10.
11. عبد الله الغدامي قصيدة التفعيلة بوصفها علامة على الأنثوية الشعرية، مجلة فصول، المجلد السادس عشر، العدد الأول، 1997، ص 66.
12. سعاد الصباح، الورود تعرف الغضب، ص40.